وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾
وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا
لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾
فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ
الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

سُورَةُ الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن
دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ
ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن
لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾

٥٠٢

معانى الكلمات :

وبدا لهم : وظهر لهم فى الآخرة .

ننساكم : نترككم .

مأواكم : منزلكم ومقركم .

وغرتكم : وخدعتكم .

الكبرياء : العظمة والجلال .

العزيز : الغالب على كل شىء .

أم لهم شرك : أم لهم شركة .

أثارة : بقية .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على ما يقع للكافرين يوم القيامة .

٢ ـ أن نعلم كيف يكون الجزاء يوم الحساب .

٣ ـ أن نعرف كيف عالجت السورة قضية العقيدة .

المحتوى التربوى :

يعلن السياق على املأ شيئا مما يقع للمنكوبين يوم القيامة ؛ فقد ظهر لهؤلاء الكفار قبائح أعمالهم أو عقوبات أعمالهم السيئات، وما نزل بهم من العذاب والنكال جزاء استهزائهم ، وقيل: اليوم نعاملكم معاملة الناس لكم فى نار جهنم كما نسيتم لقاء يوم القيامة ، فلم تعملوا له ؛ لأنكم لم تصدقوا به ، ونترككم فى العذاب كما تركتم عدة لقاء يومكم ، وهى الطاعة ، ومنزلكم النار ، ومالكم من ناصرين ينصرونكم من بأس الله ،و ما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا تسخرون وتستهزئون بها ، وخدعتكم فاطمأننتم إليها .

ثم يسدل الستار عليهم بإعلان مصيرهم الأخير ، وهم متركون فى جهنم لا يخرجون ولا يطلب إليهم اعتذار ولا عتاب ، وكأننا نسمع مع إيقاع هذه الكلمات صرير الأبواب وهى توصد إيصادها الأخير وقد انتهى المشهد فلم يعد فيه بعد ذلك تغيير ولا تحوير .

يقول صاحب الظلال : « هنا ينطلق صوت التحميد لله والتمجيد الانطلاقة الأخيرة فى السورة بعد هذا المشهد المؤثر العميق : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

ينطلق صوت التحميد يعلن وحدة الربوبية فى هذا الوجود ؛ سمائه وأرضه ، وإنسه وجنه ، وطيره ووحشه ، وسائر ما فيه ومن فيه ، فكلهم فى رعاية رب واحد يدبرهم ويرعاهم وله الحمد على الرعاية والتدبير .

وينطلق صوت التمجيد يعلن الكبرياء المطلق لله فى هذا الوجود ، حيث يتصاغر كل كبير ، وينحنى كل جبار، ويستسلم كل متمرد للكبرياء المطلق فى هذا الوجود ، ومع الكبرياء والربوبية العزة القادرة والحكمة المدبرة ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ والحمد لله رب العالمين .

سورة الأحقاف .

هذه السورة المكية تعالج قضية العقيدة ، قضية الإيمان بوحدانية الله وربوبيته المطلقة لهذا الوجود وما فيه ، والإيمان بالوحى والرسالة وأن محمداً ﷺ رسول سبقته الرسل ، أوحى إليه بالقرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، والإيمان بالبعث وما وراءه من حساب وجزاء على ما كان فى الحياة الدنيا من عمل وكسب ومن إحسان وإساءة .

وتبدأ السورة بالحرفين : حا . ميم . كما بدأت السور الست قبلها ، تليهما الإشارة إلى كتاب القرآن والوحى به عند الله ، وعقبها مباشرة الإشارة إلى كتاب الكون ، وقيامه على الحق ،و على التقدير والتدبير ، فيتوافى كتاب القرآن المتلو وكتاب الكون المنظور على الحق والتقدير .

يقول صاحب الظلال : « وهذا هو الإيقاع الأول فى مطلع السورة ، وهو يلمس العلاقة بين الأحرف العربية التى يتداولها كلامهم ، والكتاب المصوغ من جنس هذه الأحرف على غير مثال من كلام البشر ، وشهادة هذه الظاهرة بأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم ، كما يلمس العلاقة بين كتاب الله المتلو المنزل من عنده ، وكتاب الله المنظور المصنوع بيده ، كتاب هذا الكون الذى تراه العيون ، وتقرؤه القلوب ، وكلا الكتابين قائم على الحق وعلى التدبير ، فتنزيل الكتاب ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ هو مظهر للقدرة وموضع للحكمة ، وخلق السموات والأرض وما بينهما وملتبس بالحق ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ وبالتقدير الدقيق ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ تتحقق فيه حكمة الله من خلقه، ويتم فيه ما قدره له من غاية ، وكلا الكتابين مفتوح ، معروض على الأسماع والأنظار ، ينطق بقدرة الله ويشهد بحكمته» .

وهذا يقتضى إنزال وحى وإرسال رسل ؛ لتحدد للإنسان المسار الذى ينسجم به مع حكمة خلق الخلق ، ومع مقتضى العبودية لله العزيز ، ولكن الذين كفروا عما أنذروه من هول ذلك اليوم الذى لا بد لكل مخلوق من انتهائه إليه ، لا هون عما يراد بهم ولا يهتمون بالاستعداد له .

ويأتى التلقين من الله سبحانه لرسوله ﷺ ، ليواجه القوم بشهادة كتاب الكون المفتوح ، الكتاب الذى لا يقبل الجدل والمغالطة ـ إلا مراء ومحالا ـ والذى يخاطب الفطرة بمنطقها ، بما بينه وبين الفطرة من صلة ذاتية خفية ، ويطالبهم بأن يرشدوه إلى المكان الذى استقل بخلقه من عبدوهم من دون الله من الأرض ، أى شىء خلقوا فيها إن كانوا آلهة ،أم شاركوا فى خلق السموات فصار لهم شركة مع الله فى الألوهية حتى عبدتموهم ؟ !

يقول صاحب الظلال : « ثم يأخذ الطريق على ما قد يطرأ على بعض النفوس من انحراف بعيد ، فقد يصل بها هذا الانحراف إلى أن تزعم هذا الزعم أو ذاك بلا حجة ولا دليل ، يأخذ عليها الطريق فيطالبها بالحجة والدليل ويعلمها فى الوقت ذاته طريقة الاستدلال الصحيح ، ويأخذها بالمنهج السليم فى النظر والحكم والتقدير ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فإما كتاب من عند الله صادق وإما بقية من علم مستيقن ثابت ، وكل الكتب المنزلة قبل القرآن تشهد بوحدانية الخالق المبدع المدبر المقدر ... وليس هنالك من علم ثابت يؤيد مثل ذلك الزعم المتهافت » .

ويبين السياق أنه لا أضل من هؤلاء ، ومن ثم يأخذ بهم إلى نظرة موضوعية فى حقيقة هذه الآلهة المدعاة ، منددا بضلالهم فى اتخاذها ، وهى لا تستجيب لهم ، ولا تشعر بدعائهم فى الدنيا ، وقد كان بعضهم يتخذ الأصنام آلهة ، وبعضهم يتخذ الأشجار ، وبعضهم يتخذ الملائكة مباشرة أو الشيطان وكلها لا تستجيب لداعيها أصلا .

أو لا تستجيب له استجابة نافعة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الجزاء من جنس العمل ،و كما يدين الفتى يدان .

٢ ـ مشروعية الحمد عند الفراغ من أى عمل صالح أو مباح .

٣ ـ من لا يخلق لا يعبد والكافرون والمشركون الذين يتخذون آلهة غير الله تعالى لا حجة لهم ولا علم يستندون إليه ، وإنما هو العناد والمكابرة وتقليد الآباء واهمال التفكير السليم .

وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا
تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا
سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ
لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى
وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ
وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠
إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ
فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ
إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا
ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾
٥٠٣

معانى الكلمات :

حشر : جمع .

بينات : واضحات .

افتراه : اختلقه من عند نفسه .

تفيضون : تندفعون .

بدعا : منفردا .

إفك قديم : كذب قديم .

إمام : قدوة .

استقاموا : استمروا وثبتوا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر حقيقة الوحدانية التى ينطق بها كتاب الوجود .

٢ ـ أن نتعرف على موقف الكفار من الرسول ﷺ وما جاءهم به من الحق .

٣ ـ أن نعلم مقولات المشركين عن القرآن وعن الدين .

المحتوى التربوى :

يعلن السياق أنه إذا كان يوم القيامة وحشر الناس إلى ربهم تبرأت الآلهة المدعاة من عبادهم الضالين ، فكانت آلهتهم التى يعبدونها فى الدنيا بعبادتهم جاحدين ؛ لأنهم يقولون يوم القيامة : ما أمرناهم بعبادتنا ، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا ، تبرأنا إليك منهم يا ربنا ، فالتكذيب بلسان المقال قصداً إلى بيان أن معبودهم فى الحقيقة الشياطين وأهواؤهم .

وقال القاشانى : « كانوا أعداء ؛ لأن عبادة أهل الدنيا لسادتهم وخدمتهم إياهم ، لا تكون إلا لغرض نفسانى ، وكذا استعباد الموالى لخدمهم ، فإذا ارتفعت الأغراض ، وزالت العلل والأسباب ، كانوا لهم أعداء وأنكروا عبادتهم، يقولون : ما خدمتمونا، ولكن خدمتم أنفسكم ».

وهكذا يقفهم القرآن وجها لوجه أمام حقيقة دعواهم ومآلها فى الدنيا والآخرة ، بعد ما وقفهم أمام الحقيقة الكونية التى تنكر هذه الدعوى وترفضها ، وفى كلتا الحالتين تبرز الحقيقة الثانية ، حقيقة الوحدانية التى ينطق بها كتاب الوجود ، وتوجبها مصلحة المشركين أنفسهم ، ويلزمهم بها النظر إلى مآلهم فى الدنيا والآخرة .

ثم يمضى السياق يتحدث عن موقفهم من رسول الله ﷺ وما جاءهم به من الحق ، بعدما تحدث عن واقعهم وتهافت عقيدة الشرك ، ويقرر قضية الوحى كما قرر قضية التوحيد ، ويبدأ الحديث عن قضية الوحى بترذيل مقولتهم عنه ، واستنكار استقبالهم له ، وهو آيات واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ، ولا شبهة فيها ولا ريبة ، ثم إنه الحق الذى لا مرية فيه ، وهم يقولون لتلك الآيات الواضحات ولهذا الحق المبين سحر ، وشتان بين الحق والسحر وهما لا يختلطان ، ولا يشتبهان .

وهكذا يبدأ الهموم منذ البدء على تقولهم الظالم وادعائهم القبيح الذى لا يستند إلى شبهة ، ولا ظل من دليل ، ثم يرتقى فى إنكار مقولتهم الأخرى ويسوقها فى صيغة الاستفهام كأن هذا القول لا يمكن أن يقال وبعيد أن يقال ، فقد بلغ بهم التطاول أن يقولوا قد اختلقه من عند نفسه ويلقن الرسول ﷺ أن يرد عليهم بأدب النبوة الذى ينم عن حقيقة شعوره بربه ، وشعوره بوظيفته ، وشعوره بحقيقة القوى والقيم فى هذا الوجود كله ، قل لهم : كيف أفتريه ؟ ولحساب من أفتريته ؟ ولأى هدف أفتريته ؟ أأفتريه لتؤمنوا بى وتتبعونى ؟ ولكن إن افتريته فماذا يجدينى أن تكونوا معى وأن تتبعونى والله آخذنى بما افتريت ، وأنتم أعجز من أن تحمونى من الله حين يأخذنى بافترائى ، وأضعف من أن تنصرونى ؟ !

ثم يترك أمركم إلى الله فهو أعلم بما تفيضون فيه من القول والفعل ، وهو يجزيكم بما يعلمه من أمركم ، وفى شهادته الكفاية وفى قضائه ، وقد يرأف بكم فيهديكم رحمة منه ، ويغفر لكم ما كان من ضلالكم قبل الهدى والإيمان .

ويمضى معهم فى مناقشة قضية الوحى من زواية أخرى واقعية مشهودة ، فماذا ينكرون من أمر الوحى والرسالة ولم يعجلون بتهمة السحر أو تهمة الافتراء ؟ وليس فى الأمر غريب ولا عجيب ؛ فقد سبقته ﷺ الرسل ، وأمره كأمرهم ، يبلغ رسالة ربه حسبما أوحى بها إليه ، فهو لا يمضى فى رسالته لأنه يعلم الغيب ، وإنما هو يمضى وفق الإشارة وحسب التوجيه ، واثقا بربه مستسلما لإرادته مطيعا لتوجيهه ، يضع خطاه حيث قادها الله ، فما هو إلا نذير يبلغ ما أوحى إليه من ربه .

ثم يواجههم بشاهد قريب ، لشهادته قيمتها ؛ لأنه من أهل الكتاب الذين يعرفون طبيعة التنزيل، فما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذى جئتكم به قد أنزله علىّ لأبلغكموه

وقد كفرتم به وكذبتموه، وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلى، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به، فآمن هذا الذى شهد بصدقه من بنى إسرائيل لمعرفته بحقيقته، واستكبرتم أنتم عن اتباعه والله لا يهدى القوم الظالمين .

وبعد ذلك يمضى فى استعراض مقولات المشركين عن هذا القرآن وعن هذا الدين، فيحكى اعتذارهم عن التكذيب به والإعراض عنه، اعتذار المستكبر المتعالى على المؤمنين، فلقد سارع إلى الإسلام نفر من الفقراء والموالى فى أول الأمر، فراح الكبراء يقولون : لو كان هذا الدين خيراً ما كان هؤلاء أعرف منا به ولا أسبق منا إليه، فهم لا يسلمون أبداً أنهم مخطئون، فلابد من عيب فى الحق ما داموا لم يهتدوا به وسيقولون هذا كذب مأثور عن الأقدمين .

ويختم هذه الجولة فى قضية الوحى والرسالة بالإشارة إلى كتاب موسى وتصديق هذا القرآن له وقد قرر القرآن الإشارة إلى الصلة بين القرآن والكتب قبله وبخاصة كتاب موسى باعتبار أن كتاب عيسى تكملة وامتداد له، وأصل العقيدة والتشريع فى التوراة، ومن ثم سمى كتاب موسى إماما وبأنه رحمة، وهذا القرآن مصدق للأصل الأول الذى تقوم عليه الديانات كلها، والإشارة إلى عروبته للامتنان على العرب، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم، وعنايته بهم ومظهرها اختيارهم لهذه الرسالة، واختيار لغتهم لتتضمن هذا القرآن العظيم ثم بيان لطبيعة الرسالة ووظيفتها وهى بشرى للمحسنين وإنذار للظالمين، ويصور القرآن جزاء المحسنين، ويفسر لهم هذه البشرى التى يحملها إليهم القرآن الكريم بشرطها، وهو الاعتراف بربوبية الله وحده والاستقامة على هذا الاعتقاد ومقتضياته، فقوله :﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ ليست كلمة تقال، بل إنها ليست مجرد عقيدة فى الضمير، إنما هى منهج كامل للحياة يشمل كل نشاط فيها وكل اتجاه ويقيم ميزانا للتفكير والشعور، فلله العبادة وإليه الاتجاه، ومنه الخشية وعليه الاعتماد .

والاستقامة والثبات على هذا المنهج درجة بعد اتخاذ المنهج، والذين يقسم الله لهم المعرفة والاستقامة هم الصفوة المختارة، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون فهم أصحاب الجنة جزاء ما قدموا من عمل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المسلم يمضى فى دعوته لله لا لأنه يعرف مآلها أو مستقبلها ولكن لأن هذا واجبه وكفى .

٢ ـ طبيعة أهل الكبر اختلاق المعاذير، والادعاء بالباطل على الحق وأهله .

٣ ـ ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ منهج كامل لا كلمة تلفظها الشفاه، ولا عقيدة سلبية بعيدة عن واقعيات الحياة .

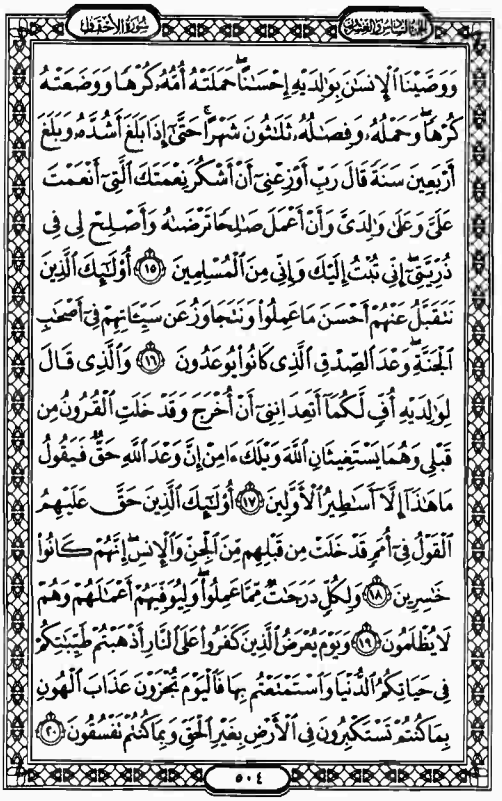
وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾
٥٠٤

معانى الكلمات :

فصاله : فطامه .

أشده : كمال قوته وعقله .

أوزعنى : ألهمنى .

نتجاوز : نعفو .

أساطير : خرافات .

درجات : منازل .

يعرض : يوقف .

الهون : الهوان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن آصرة الإيمان وآصرة الوالدين تلتقيان فى الطريق المستقيم إلى الله .

٢ ـ أن نتعرف على قيمة الأسرة فى الإسلام .

٣ ـ أن نقف على سبب عرض الكافرين على النار وسوقهم إليها .

المحتوى التربوى :

فى هذا السياق تلتقى آصرة الإيمان وآصرة الوالدين فى طريقهما المستقيم المهتدى الواصل إلى الله ، وتأتى الوصية لجنس الإنسان كله ، قائمة على أساس إنسانيته ، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى وراء كونه إنسانا ، وهى وصية بالإحسان مطلقة من كل شرط ومن كل قيد ، فصفة الوالدية تقتضى هذا الإحسان بذاتها بدون حاجة إلى أية صفة أخرى كذلك ، وهى وصية صادرة من خالق الإنسان ، وتتكرر فى القرآن الكريم وفى حديث الرسول ﷺ الوصية بالإحسان إلى الوالدين ، ولا ترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرة ، ولمناسبة حالات معينة ، ذلك أن الفطرة وحدها تتكفل برعاية الوالدين للأولاد .

والإسلام يجعل الأسرة هى اللبنة الأولى فى بنائه ، والطفل الذى يحرم من محضن الأسرة ينشأ شاذا غير طبيعى فى كثير من جوانب حياته ، وأول ما يفقده فى أى محضن آخر غير محضن الأسرة هو شعور الحب ، فقد ثبت أن الطفل بفطرته يحب أن يستأثر وحده بأمه فترة العامين الأولين من حياته ، ولا يطيق أن يشاركه فيها أحد ، وهذا مالا يتيسر إلا فى محضن الأسرة الطبيعى .

ويصور القرآن هنا تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التى تتقدم بها الأمومة ، والتى لا يجزيها أبداً إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله فى الوالدين ، فصورة الحمل وبخاصة فى أواخر أيامه وصورة الوضع وطلقه وآلامه وهو عملية شاقة ممزقة ، ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف فى وجه الفطرة ولا تنسى الأم حلاوة الثمرة ، ثمرة التلبية للفطرة ، ومنح الحياة نبتة جديدة تعيش وتمتد بينما هى تذوى وتموت ، ثم الرضاع والرعاية ؛ حيث تعطى الأم عصارة لحمها وعظمها فى اللبن ، وعصارة قلبها وأعصابها فى الرعاية ، فأنى يبلغ الإنسان فى جزاء هذه التضحية مهما يفعل ، وهو لا يفعل إلا القليل الزهيد ؟

ويخلص من هذه الوقفة أمام الوصية بالوالدين ، واستجاشة الضمائر بصورة التضحية النبيلة ممثلة فى الأم إلى مرحلة النضج والرشد مع استقامة الفطرة واهتداء القلب ، وبلوغ الأشد يتراوح بين الثلاثين والأربعين ، وفى هذه السن تتجه الفطرة المستقيمة السليمة إلى ما وراء الحياة وما بعد الحياة وتتدبر المصير والمآل، ويصور القرآن هنا خوالج النفس المستقيمة، وهى فى مفرق الطريق، بين شطر من العمر ولى، وشطر يكاد آخره يتبدى وهى تتوجه إلى الله، فالقلب الشاعر بنعمة ربه، المستعظم المستكثر لهذه النعمة التى تغمره وتغمر والديه قبله فهى قديمة العهد به ، المستقل المستصغر لجهده فى شكرها ، يدعو ربه أن يعينه بأن يجمعه كله لينهض بواجب الشكر ، فلا يفرق طاقته ولا اهتمامه فى مشاغل أخرى غير هذا الواجب الضخم الكبير وهو يطلب العون للتوفيق إلى عمل صالح يبلغ من كماله وإحسانه أن يرضاه ربه .

وتأتى رغبة القلب المؤمن فى أن يتصل عمله الصالح فى ذريته ، وأن يؤنس قلبه شعوره بأن فى عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه ، والذرية الصالحة أمل العبد الصالح ، وهى آثر عنده من الكنوز والذخائر وأروح لقلبه من كل زينة الحياة ، والدعاء يمتد من الوالدين إلى الذرية ، وشفاعته إلى ربه التى يتقدم بها بين يدى هذا الدعاء الخالص لله ، هى التوبة والإسلام ، ذلك شأن العبد الصالح مع ربه ، فأما شأن الله ربه معه أنه يتقبل عنه أحسن الأعمال ، والسيئات مغفورة متجاوز عنها ، والمآل إلى الجنة ، ذلك وفاء بوعد الصدق الذى وعدوه فى الدنيا ، ولن يخلف الله وعده .

وينتقل السياق إلى نموذج الانحراف والفسوق والضلال؛ فالوالدان مؤمنات ، والولد العاق يجحد برهما أول ما يجحد،فيخاطبهما بالتأفف الجارح الخشن الوقح،ثم يجحد الآخرة بالحجة

الواهية من أن الناس قد خلوا من قبله ولم يعد منهم أحد ، والوالدان يريان الجحود ويسمعان الكفر ويفزعان مما يقوله الولد العاق لربه ولهما، ويرتعش حسهما لهذا التهجم والتطاول، ويهتفان به أن آمن فوعد الله حق، بينما هو يصر على كفره ، فيقول : ما هذا إلا خرافات سطرها الأولون وهنا يعاجله الله بمصيره المحتوم ، والقول الذى حق على هذا وأمثاله هو العقاب الذى ينال الجاحدين المكذبين وهم كثير خلت بهم القرون من الجن والإنس وقد كانوا خاسرين . وبعد بيان العاقبة والجزاء إجمالا للمهتدين والضالين ، يصور دقة الحساب والتقدير لكل فرد من هؤلاء وهؤلاء على حدة ، فلكل فرد درجته ، ولكل فرد عمله .

ثم يقفهم السياق وجها لوجه أمام مشهد شاخص لهم فى يوم الحساب الذى كانوا يجحدون ؛ إنه مشهد العرض على النار ، وفى مواجهتها وقبيل سوقهم إليها ، يقال لهم عن سبب عرضهم عليها وسوقهم إليها ؛ فقد كانوا يملكون الطيبات إذن ، ولكنهم استنفذوها فى الحياة الدنيا ، فلم يدخروا للآخرة منها شيئا ، واستمتعوا بها غير حاسبين فيها للآخرة حسابا ، واستمتعوا بها استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع ، غير ناظرين فيها للآخرة ، ولا شاكرين لله نعمته ، ولا متورعين فيها عن فاحش أو حرام ، ومن ثم كانت لهم دنيا ولم تكن لهم آخرة ، واشتروا تلك اللمحة الخاطفة على الأرض بذلك الأمد الهائل الذى لا يعلم حدوده إلا الله .

وكل عبد يستكبر فى الأرض فإنما يستكبر بغير حق ، فالكبرياء لله وحده ، وليست لأحد من عباده فى كثير أو قليل ، وعذاب الهون هو الجزاء العدل على الاستكبار فى الأرض ، فجزاء الاستكبار الهوان ، وجزاء الفسوق عن منهج الله ، المستكبرين عن طاعته ، وهى لمسة للقلب البشرى تستجيش الفطر السليمة القويمة لارتياد الطريق الواصل المأمون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وجوب البر بالوالدين بطاعتهما فى المعروف والإحسان إليهما بعد كف الأذى عنهما .

٢ ـ الاستعانة بالله والتوبة إليه حتى يرزقنا شكر نعمته والتوفيق للعمل الصالح لنا ولذريتنا من بعدنا .

٣ ـ عناية الإسلام بالأسرة وإقامتها على الحب والتعاون ، وأن يكون الأبوان قدوة صالحة لأبنائهما .

٤ ـ عقوق الوالدين وإنكار فضلهما والإساءة إليهما ولو بكلمة دليل الجحود وطريق موصل إلى إنكار الآخرة والكفر بالله تعالى ، نعوذ بالله من شره .

معانى الكلمات :

أخا عاد : هود عليه السلام.

أنذر : حذر .

لتأفكنا : لتصرفنا .

عارضا : يعرض فى الأفق .

مكناهم : أقدرناهم وبسطنا لهم .

صرفنا : كررنا .

قربانا : ما يتقرب به .

إفكهم : افتراؤهم وكذبهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على سنة الله فى الأمم فى إرسال الرسل إليهم .

٢ ـ أن نعلم سفه وجهل الأمم التى تطالب بالعذاب وتستعجل به .

٣ ـ أن نعلم سنة الله تعالى فى إهلاك المجرمين .

المحتوى التربوى :

يوجه الله سبحانه نبيه ﷺ أن يذكر أخا عاد وإنذاره لقومه بالأحقاف ، يذكره ليتأسى بأخ له من الرسل لقى مثلما يلقى من إعراض قومه وهو أخوهم ، ويذكره ليذكر المشركين فى مكة بمصير الغابرين من أمثالهم على مقربة منهم ومن حولهم وقد أنذر أخو عاد قومه ولم يكن أول نذير لقومه فقد سبقته الرسل إلى أقوامهم ، والأمر ليس بدعا ولا غريبا ، فهو معهود ومألوف ، وقد أنذرهم ما أنذر به كل رسول قومه : بأن يعبدوا الله ، وعبادة الله وحده عقيدة فى الضمير ومنهج فى الحياة ، والمخالفة عنها تنتهى إلى العذاب العظيم فى الدنيا أو فى الآخرة ، أو فيهما على السواء .

لقد كان جواب قومه سوء الظن وعدم الفهم ، والتحدى للنذير ، واستعجال العذاب الذى ينذرهم به والاستهزاء والتكذيب وإصراراً على الباطل واعتزازا ، فأما هود النبى فيتلقى هذا كله فى أدب النبى وفى تجرده من كل ادعاء ، وفى الوقوف عند حده لا يتعداه ، ويجيب : إنما أنذركم بالعذاب كما كلفت أن أنذركم بالعذاب، ولست أعلم متى يحين موعده، ولا كيف يكون شكله، فعلم ذلك عند الله ، وإنما أنا مبلغ عن الله ، ولا أدعى علما ولا قدرة مع الله ، ولكنى أراكم قوما لا تعقلون ولا تفهمون .

ويجمل السياق هنا ما كان بين هود وقومه من جدل طويل ، ليمضى إلى النهاية المقصودة أصلا فى هذا المقام رداً على التحدى والاستعجال ، وتقول الروايات : إنه أصاب القوم حر شديد واحتبس عنهم المطر ، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف ثم ساق الله إليهم سحابة ، ففرحوا بها فرحا شديداً وخرجوا يستقبلونها فى الأودية ، وهم يحسبون فيها الماء ، وجاءهم الرد بلسان الواقع بأن هذا العذاب الذى طلبتموه ؛ ريح صرصر عاتية تخرب كل شىء بإذن ربها، فأصبحت المساكن قائمة خاوية موحشة لا ديار فيها ولا نافخ نار ، أما هم وأما أنعامهم وأما أشياؤهم وأما متاعهم فلم يعد شىء منه يرى ، وجزاء الظالمين سنة جارية وقدر مطرد .

وعلى مشهد الدمار والخراب يلتفت إلى أمثالهم الحاضرين ، يلمس قلوبهم بما ترتعش منه القلوب ؛ فهؤلاء الذين دمرتهم الريح المأمورة بالتدمير ، مكناهم فيما لم نمكنكم فيه إجمالا من القوة والمال والعلم والمتاع ، وآتيناهم أسماعا وأبصاراً وأفئدة ولكن هذه الحواس والمدارك لم تنفعهم فى شىء ، إذ إنهم عطلوها وحجبوها ، فقد كانوا يجحدون بآيات الله ، والجحود بآيات الله يطمس الحواس والقلوب ويفقدها الحاسية والإشراق والنور والإدراك، وأحاط بهم العذاب والنكال الذى كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه .

يقول صاحب الظلال : « والعبرة التى يفيدها كل ذى سمع وبصر وقلب ألا يغتر ذو قوة بقوته ، ولا ذو مال بماله ، ولا ذو علم بعلمه فهذه قوة من قوى الكون تسلط على أصحاب القوة والمال والعلم والمتاع ، فتدمر كل شىء وتتركهم لا يرى إلا بيوتهم حين يأخذهم الله بسنته التى يأخذ بها المجرمين » .

والريح قوة دائبة العمل وفق النظام الكونى الذى قدره الله ، وهو يسلطها حين يسلطها للتدمير وهى ماضية فى طريقها الكونى ، تعمل وفق الناموس المرسوم ، فلا حاجة لخرق النواميس الكونية ـ كما يعترض المعترضون واهمين فصاحب الناموس المرسوم هو صاحب القدر المعلوم ، وكل حادث وكل حركة ، وكل اتجاه وكل شخص وكل شىء محسوب حسابه داخل فى تصميم الناموس ، والريح كغيرها من القوى الكونية مسخرة بأمر ربها ، ماضية تؤدى

ما قدره لها فى نطاق الناموس المرسوم لها وللوجود كله ، ومثلها قوة البشر المسخرة لما يريده الله بها ، المسخر لها من قوى الكون ما أراد الله تسخيره لها ، وحين يتحرك البشر فإنما يؤدون دورهم فى هذا الوجود ، ليتم ما أراده الله بهم وفق ما يريد ، وحرية إرادتهم فى الحركة والاختيار جزء من الناموس الكلى ينتهى إلى التناسق الكونى العام ، وكل شىء مقدر تقديراً لا يناله نقص ولا اضطراب .

وتأتى العبرة الكلية لمصارع من حولهم من القرى من عاد وغير عاد ، وقد أهلك الله القرى التى كذبت رسلها فى الجزيرة ، كعاد بالأحقاف فى جنوب الجزيرة ، وثمود بالحجر فى شمالها ، وسبأ وكانوا باليمن ، ومدين وكانت فى طريقهم إلى الشام ، وكذلك قرى قوم لوط وكانوا يمرون بها فى رحلة الصيف إلى الشمال .

ولقد نوع الله فى آياته لعل المكذبين يرجعون إلى ربهم ويثوبون ، و لكنهم مضوا فى ضلالتهم ، فأخذهم العذاب الأليم ألوانا وأنواعا ، تتحدث بها الأجيال من بعدهم ، ويعرفها الخلف من ورائهم ، وكان مشركو مكة يتسامعون بها ، ويرون آثارها غادين رائحين .

وهنا يلفتهم إلى الحقيقة الواقعة ، فقد دمر الله على المشركين قبلهم وأهلكهم دون أن تنجيهم آلهتهم التى كانوا يتخذونها من دون الله ، زاعمين أنهم يتقربون بها إليه سبحانه ، وهى تستنزل غضبه ونقمته ولا تنصرهم ، بل تتركهم وحدهم لا يعرفون طريقا إليهم أصلا ، فضلا على أن يأخذوا بيدهم وينجدهم من بأس الله، وهذا كذبهم وافتراؤهم ، وذلك مآله وتلك حقيقة الهلاك والتدمير،فماذا ينتظر المشركون الذين يتخذون من دون الله آلهة بدعوى أنها تقربهم من الله زلفى ؟ وهذه هى العاقبة والمصير .

ومصرع عاد عندما كذبوا بالنذير ، وأتتهم الريح العقيم التى توقعوا فيها الرى والحياة ، فإذا بها تحمل إليهم الهلاك والدمار والعذاب الذى استعجلوا به وطلبوه ـ يلمس القلوب وهو يذكر بأن عاداً كانت أشد قوة وأكثر ثروة، والعبرة لتشد بالأسماع والأبصار لتخضع وتذل ، فتتذكر بأن هناك إلها قويا خالقا تنبغى له العبودية والطاعة فى كون حركته وسكونه بيد الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الإعراض عن هداية الله تعالى يستوجب العذاب .

٢ ـ ألا يغتر قوى بقوته ، ولا غنى بثروته ، ولا عالم بعلمه ، فكل شىء من عند الله وهو قادر على أن يزيله فى طرفة عين .

٣ ـ على المسلم أن يتأدب بأدب النبوة فى مخاطبة من يدعوه وفى مجادلته بالتى هى أحسن .

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا
حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ
﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن
ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ
فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ
إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ
أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا
كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ
وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا
سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾
سورة محمد
٥٠٦

معانى الكلمات :

صرفنا : وجهنا .

نفراً : جماعة من ثلاثة إلى عشرة .

قضى : فرغ .

ولوا : رجعوا .

منذرين : محذرين .

العزم : الثبات والصبر .

يلبثوا : يمكثوا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على أثر مس القرآن لقلوب الجن .

٢ ـ أن نعلم أن كتاب الله المفروء والمفتوح يدعو إلى الحق والهداية .

٣ ـ أن نستشعر هول العذاب يوم الحساب .

المحتوى التربوى :

يقول صاحب الظلال : « سياق قصة النفر من الجن الذين استمعوا لهذا القرآن ، فشادوا بالإنصات واطمأنت قلوبهم إلى الإيمان ، وانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الله ويبشرونهم بالغفران والنجاة ، ويحذرونهم الإعراض والضلال ، سياقة الخبر فى هذا المجال بهذه الصورة ، وتصوير مس القرآن لقلوب الجن هذا المس الذى يتمثل فى قولهم : أنصتوا عندما طرق أسماعهم ، ويتمثل فيما حكوه لقومهم عنه ، وفيما دعوهم إليه ، كل هذا من شأنه أن يحرك قلوب البشر الذين جاء القرآن لهم فى الأصل ... ومقالة النفر من الجن ـ مع خشوعهم عند سماع القرآن ـ تتضمن أسس الاعتقاد الكامل : تصديق الوحى ، ووحدة العقيدة بين التوارة والقرآن ، والاعتراف بالحق الذى يهدى إليه ، والإيمان بالآخرة وما ينتهى إلى المغفرة وما ينتهى إلى العذاب

من الأعمال ، والإقرار بقوة الله وقدرته على الخلق وولايته وحده للعباد ، والربط بين خلق الكون وإحياء الموتى .. وكلها جاءت على لسان النفر من الجن ، من عالم آخر غير عالم الإنسان .

ومن هذا النص والنصوص الأخرى المتناثرة فى القرآن الكريم، ومن الآثار النبوية الصحيحة ـ نستطيع أن ندرك بعض الحقائق عن الجن ، هذه الحقائق تتلخص فى :

أن هنالك خلقا اسمه الجن ، مخلوق من النار ، وأن هذا الخلق له خصائص غير خصائص البشر ، منها : خلقته من نار ، ومنها : أنه يرى الناس ولا يراه الناس ، وأنه له تجمعات معينة تشبه تجمعات البشر فى قبائل وأجناس ، وأنه له قدرة على الحياة فى هذا الكوكب الأرضى ، والجن الذين سخروا لسليمان عليه السلام كانوا يقومون له بأعمال فى الأرض تقتضى أن يكونوا مزودين بالقدرة على الحياة فيها .

وأن له قدرة كذلك على الحياة خارج هذا الكوكب ، وأنه يملك التأثير فى إدراك البشر وهو مأذون فى توجيه الضالين منهم غير عباد الله، وأنه يستطيع أن يسمع صوت الإنسان ويفهم لغته، وأنه قابل للهدى والضلال ، وهذا هو القدر المستيقن فى أمر الجن وهو حسبنا بلا زيادة عليه ليس عليها من دليل .

لقد كان تدبيراً من الله أن يصرف نفراً من الجن إلى استماع القرآن لا مصادفة عابرة ، وكان فى تقدير الله أن تعرف الجن نبأ الرسالة الأخيرة كما عرفت من قبل رسالة موسى ، وأن يؤمن فريق منهم وينجو من النار المعدة لشياطين الإنس ، ويرسم النص مشهد هذا النفر ـ وهم ما بين ثلاثة وعشرة ـ وهم يستمعون إلى هذا القرآن ، ويصور لنا ما وقع فى حسهم منه من الروعة والتأثر والرهبة والخشوع ، وقد استمعوا صامتين متنبهين حتى النهاية ، فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه مالا تطيق السكوت عليه أو التلكؤ فى إبلاغه والإنذار به .

وولوا إلى قومهم مسارعين يقولون لهم . إنا سمعنا كتابا جديدا أنزل من بعد موسى ، يصدق كتاب موسى فى أصوله، ثم عبروا عما خالج مشاعرهم منه ،وما أحست ضمائرهم فيه ، فقالوا عنه : أنه يهدى إلى الحق والهدى ، لا يقف له قلب غير مطموس ، ولا تصمد له روح غير معاندة ولا مستكبرة ولا مشدودة بالهوى الجامح اللئيم ، ثم مضوا فى نذارتهم لقومهم فى حماسة المقتنع المندفع الذى يحس أن عليه واجبا فى النذارة لابد أن يؤديه فقد اعتبروا نزول هذا الكتاب إلى الأرض دعوة من الله لكل من بلغته من إنس وجن ، واعتبروا محمداً ﷺ داعيا لهم إلى الله بمجرد تلاوته لهذا القرآن واستماع الثقلين له ، فدعوا قومهم إلى أن الاستجابة للإيمان بالله وقد عرفوا أن الإيمان والاستجابة لله يكون معهما غفران الذنب والإجارة من العذاب ، وبينوا أن الذى لا

يستجيب لا يعجز الله أن يأتى به ويوقع عليه الجزاء ، ويذيقه العذاب الأليم ، فلا يجد له من دون الله أولياء ينصرونه أو يعينونه ، وأن هؤلاء المعرضين ضالون ضلالاً بينًا عن الصراط المستقيم .

ويأتى فى السياق تعجيبا من أولئك الذين لا يستجيبون لله حاسبين أنهم سيفلتون ، أو أنه ليس هناك حساب ولا جزاء ، وهى لفتة إلى كتاب الكون المنظور الذى يشهد بالقدرة المبدعة ابتداء لهذا الخلق الهائل : السموات والأرض ، ويوحى للحس البشرى بيسر الإحياء بعد الموت ، وهذا يقع فى نطاق قدرة الله الشاملة لكل شىء كان أو يكون .

وعند ذكر الإحياء يرتسم مشهد الحساب كأنه شاخص للعيون ، ويبدأ المشهد حكاية ، أو مقدمة لحكاية اليوم الذى سيعرض فيه الذين كفروا على النار ، وبينما السامع فى انتظار وصف ما سيكون ، إذا المشهد يشخص بذاته ، وإذا الحوار قائم فى المشهد المعروض : أليس هذا بالحق لما كانوا يكذبون به فى الدنيا ، فلا يملكون إلا التسليم فى خزى ومذلة وفى ارتياع ويقسمون بربهم الذى كانوا لا يستجيبون لداعيه على الحق الذى أنكروه ، ويقضى الأمر وينتهى الحوار فالجريمة ظاهرة ،و الجانى معترف فإلى الجحيم .

ثم يوجه السياق الرسول ﷺ أن يصبر عليهم ولا يستعجل لهم ، فقد رأى ما ينتظرهم وهم منهم قريب ، ويحتاج الرسول ﷺ إلى توجيه ربه وهو الذى احتمل ما احتمل ، وعانى من قومه ما عانى .

يقول صاحب الظلال : « ألا إنه لطريق شاق ، طريق هذه الدعوة ، وطريق مرير حتى لتحتاج نفس كنفس محمد ﷺ فى تجردها وانقطاعها للدعوة ، وفى ثباتها وصلابتها ، وفى صفائها وشفافيتها ، تحتاج إلى التوجيه الربانى بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنتين ، نعم وإن مشقة هذا الطريق لتحتاج إلى مواساة وإن صعوبته لتحتاج إلى صبر ، وإن مرارته لتحتاج إلى جرعة حلوة من رحيق اللطف الإلهى المختوم » .

ثم يطمئن السياق أنه أمد قصير ساعة من نهار ، وما كانت تلك الساعة إلا بلاغا للعباد وقبل أن يحق الهلاك والعذاب الأليم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إذا كان الجن قد تحركت قلوبهم للقرآن فمن الأولى لبنى الإنسان أن تلتفت قلوبهم إليه .

٢ ـ الكون الكبير بكل من فيه وما فيه كتاب مفتوح يدل على قدرة الله تعالى .

٣ ـ لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا ، فصعوبة طريق الدعوة تحتاج إلى صبر وثبات .